الخانات البغدادية
ودورها في تأصيل المبادئ الإجتماعية

م. د. مازن قاسم مهلهل*

•المقدمة:

بما أن اهتمام العراقيـــين بالتجارة موغل بالقدم فمن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ نشـــوء هذه المراكز خاصة وأن الشواهد الآثارية لم تقدم لنا دليلاً ملموساً على وجودها.

ومع ذلك فأن النصوص المسمارية قد أكدت وجود مثل هذه المنشآت على طرق التجارة، إذ أشارت في الأقل إلى قيام بعض الملوك باتخاذ إجراءات من شأنها جعل طرق التجارة أمنة ومريحـــة. فكان بعض هؤلاء الملوك يقوم بنفســـه بجولات تفتيشـــية ويأمر بإقامة نقاط حماية، ويوفر للقوافل وأصحابها أماكن للراحة والتي ربما كانت على غرار الخانات.

إن أقـــدم النصوص على ذلك نص نفهم منه بوضوح اهتمام الملك « شـــولكي» ثاني ملوك سلالة أور الثالث (٢٩٠٤- ٢٠٤٧) بالطرق التي أقام عليها بيوتاً كبيرة لراحة المسافرين وأحاط جوانبها بحدائق وأشجار للتفيؤ بظلالها.

ولا بد من الوقوف على الأسواق باعتبار الخان جزءاً منها أو مكملاً لها والحقيقة أننا نجهل أماكن نزول القوافل واســـتقرارها في المدينـــة العراقية القديمة، لأن التنقيبات الأثرية لم تكشـــف عن مباني ذات تصميم خاص تكون بمثابة أسواق كالتي عرفناها لاحقاً في المدن العربية الإسلامية.

* جامعة بغداد/ مركز إحياء التراث العلمي العربي

المبحث الأول

أولاً: معنى الخان

الخان لغةً: يكاد اللغويين العرب أن يجمعوا على أن الخان كلمة فارسية معربة[١]، بيد أن البعض يراها تترية[٢]، أو تركية[٣]، أو أنها جاءت عن الآرامية القديمة [٤]، والمقصود بالخان هو المكان الخاص بإقامة التجار وحفظ امتعتهم وبضاعتهم[٥].

اصطلاحا: عُرفت الخانات في بلاد فارس وتركيا أيضاً بـ (المسافر خانة) أي دار المسافرين، كما عرفت هذه اللفظة في البلاد العربية[٦]، خاصة في العصر العثماني، حيث كانت تطلق على دور الضيافة [٧]. في حين عُرفت في بلاد اليمن (بالسماسر)[٨] نسبة إلى الرجل السمسار الذي يتوسط بين البائع والشاري من أجل ترويج البضاعة [٩].

ومن المهم ذكره بأن لفظة (خان) قد غلبت في العهود الأخيرة على باقي المسميات التي عرف بها هذا الضرب من العمارات الخدمية من الأقاليم العربية الإسلامية وبخاصة مصر وبلاد الشام. فيذكر ابن بطوطة مثلاُ بان سكان الشام كانوا عند زيارته لها يسمون الفنادق التي ينزلها المسافرون بدوابهم بالخانات[١٠]، وكذلك المقريزي فأنه عندما وصف فندق « مسرور الكبير» بالقاهرة، يقول: « أدركت فندق مسرور الكبير في غاية العمارة ينزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم وكان من أجمل الخانات وأعظمها[١١]، وكذلك الحال بالنسبة إلى لفظة (الوكالة) فأنها خان في عرف المصريين، كما إن (القيسارية) خان في عرف الشاميين[١٢].

وخلاصة القول أن فكرة بناء الخانات في المدن العربية الإسلامية قد ظهرت ونضجت بمفهومها الواسع منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، بصرف النظر عن تعدد التسميات وتباينها من إقليم لأخر فأن المفهوم العام هو المكان المخصص للتجار والذي يفي بمستلزمات سكنهم وحفظ بضائعهم .

ثانياً: نشأة الخان

بما أن اهتمام العراقيين بالتجارة موغل بالقدم فمن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ نشوء هذه المراكز خاصة وأن الشواهد الإثارية لم تقدم لنا دليلاً ملموساُ على وجودها.

ولما كنا نسعى إلى معرفة نشأة الخانات داخل المدن لابد من الوقوف على الأسواق باعتبار الخان جزءً مكملاً لها والحقيقة إننا نجهل أماكن نزول القوافل واستقرارها في المدينة العراقية القديمة، لأن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن المباني ذات تصميم خاص تكون بمثابة أسواق كالتي عرفناها لاحقاً في المدن العربية الإسلامية. ويعتقد بعض الباحثين بأن الأسواق في المدينة العراقية القديمة كانت تعقد في فسح كبيرة مكشوفة تقع عند بوابات المدينة أو في الساحة الرئيسة للمعبد[١٣].

ثالثاً: وظيفة الخان

لقد شملت وظيفة الخان النواحي المهنية والتجارية والسكنية فبعضها يقوم مقام الفندق والسوق التجارية في آن واحد حيث يكون الطابق الأرضي معداً لنزول القوافل فيتسع لجميع البضائع أما الطابق العلوي فيستخدم عادة لسكن المسافرين والتجار يقيمون فيه إلى حين تصريف البضائع

أما الطابق العلوي فيستخدم عادة لسكن المسافرين والتجار يقيمون فيه إلى حين تصريف البضائع التي تعرض تجار المدينة بوساطة السماسرة والدلالين الذين لهم دور كبير في ترويجها[١٤].

وإذا كانت المصادر التاريخية المتيسرة لا تمدنا بمعلومات وافية عن خانات بغداد، فأن بعضها تحدث بإسهاب عن أسواقها والمعاملات التجارية والقوافل التي تتدفق كل يوم على المدينة وهي مثقلة بالبضائع[١٥]، وتطرق بعضهم عن إعادة التصدير بوساطة السفن التي تنحدر في نهر دجلة أو براً بوساطة الجمال التي تتجمع المئات منها خارج الأسوار ليجري تحميلها بالبضائع إلى المدن الأخرى [١٦]، لهذا نتوقع ازدحام الخانات في المدن الكبيرة في أغلب أيام السنة. وتفتقر خانات بغداد إلى الخدمات الضرورية بسبب خلو غرفها من الأثاث سواء كانت موائد وأسرة أو كرسياً ومقاعداً، إذ غالباً ما كانت تفرش بحصير القصب للتعويض عن تلك المستلزمات[١٧]، وبذلك يضطر إلى جلب فرشة معه وما يحتاجه من لوازم تعينه على الإقامة[١٨].

وتسمية بعض المصادر العربية بالخاني[١٩]، (حصراً على الخان)، وفي عصرنا نطلق عليه (الخانجي) ويكون مسؤولاً عن سلامة التجار وحماية البضائع، وفي بعض الأحيان يكون مسؤولاً عن حفظ الأموال، خاصة في الخانات التي توفرت فيها أماكن لإنجاز بعض أعمال الصيرفة، حيث يودع التجار أموالهم لدة الخاني كما هو الحال في خانات مصر[٢٠] وسماسر صنعاء[٢١]، وربما لهذا السبب نلاحظ أن للخانات أبواباً فخمة تتحكم فيها أقفال كبيرة خشية السرقة[٢٢].

وإن وظيفة القيم في الخان لا تختلف كثيراً عن وظيفته بالمسجد فهو المسؤول عن إدارة الخان وتلبية احتياجات النزلاء من تجار ومسافرين ويساعده في ذلك صبيان يقومون بجميع الأعمال التي من شأنها أن تساعد على إدامة الحياة في هذه الخانات. ويسعون في الوقت نفسه إلى توفير الحاجات الضرورية التي يطلبها النزيل من الأسواق المجاورة وبشكل سريع طبعاً[٢٣].

ولما كان القيم مسؤولاً عن إدارة الخان المتولي مسؤولاً عن حساباته بوصفه وكيلاً شرعياً ينوب عن صاحبه الأصلي. وفي حالة كون الخان وقفاً على مؤسسة دينية أو مدنية فأن وظيفة المتولي بالدرجة الأساس هو توزيع ريع الخان بموجب ما جاء بنص الوقفية. فيصرف مثلاً نصف ريع الخان على احتياجات مسجداً ما من ترميم وفرش وإنارة وخادم ومؤذن وأمام والثاني يصرف على ذرية الواقف، والأمثلة على ذلك كثيرة بل لا يحدها الحصر , ومنها وقفيتا خان الخافقين وخان الكتان[٢٤]، ويبدو أن للمتولي مهمة أخرى هي مراقبة المبنى والمحافظة عليه، فهو المسؤول عن ترميمه وصيانته، وهو الأمر بالصرف بعد موافقة الجهات المعنية.

ومن الطبيعي أن يكون للخان حارس يسهر على حماية النزلاء وبضائع التجار من اللصوص والمحتالين، ويحكم غلق الأبواب ليلاً، ويكون عادةً قريباً من الباب يسمع من يطرقه عليه، ولا يفتح إلا لساكن أو قاصد

مقصداً معلوماً[٢٥].

في ضوء ممـــا تقدم يكون مفهومنا لوظيفة الخان قائماً على أمرين، الأمر الأول هو سكن للتجار والثاني لحفـــظ بضائعهم فإذا صح ذلك فلا نـــدري كيف نفسر خلو الخانات من المرافق الخدمية المكملـــة كالمطبخ والحمام ودورات المياه وعلى ما يبـــدو أن المعمار قد اســـتعاض عن المطبخ بالمواقد الكثيرة التي توزعت في الأروقـــة، كما أن وجود الحمامات العامـــة في مثل هذه المنشـــأت ليس ضرورة ملحة لكثرة الحمامـــات العامة وقربها من الأسواق، أما دورات المياه فيبقى عدم وجودها أمراً محيراً لأهميتها الكبيرة في هذه العمارات، والحقيقـــة أننا لم نتوصل إلى استنســـاخ أو مبني على دليل ملمـــوس، لأن جميع دورات المياه القائمة في الوقـــت الحاضر في خاناتنا مضافة وليســـت من أصل البناء حيث أقيمت على السطوح كما هو الحال في خانات الكتان والبرزة لي ودلـــة، لهذا فأننـــا نفترض بأن الاعتمـــاد كان قائماً بالدرجة الأســـاس على المســـاجد القريبة أو الفسح الكبيرة على نهر دجلة، أو لعل السطوح قد استغلت لمثل ذلك الأمر. ولم يكن الخلو مـــن المرافق الخدمية المكملـــة مقتصراً على خانـــات بغداد، وإنما تعداها إلى خانات المدن العراقية الأخرى التي خلصت إلينا، مثـــل خانات الموصل وكركوك والنجف.

وتبدو هذه الظاهرة قديمة لخلو خان مرجان منها أيضاً إذ ربما عوضت المدرسة المرجانية ما ينقص الخان من مسجد وحمام ودورات مياه، لكونه ملحقاً بالمدرســـة وموقفاً عليها.

وخلت خانات بغداد أيضاً من تقديم الطعام، فيضطر النزيل ارتيـــاد حوانيت الطباخين (المطاعم)، أو ربما جلب معه الطعام وماعدا ذلك فكل نزيل يطبخ لنفسه ما يريده داخل الخان، ويكون ذلك طبعاً في مواقد أعدت لهذا الغرض كما سيأتي ذكره وقد وصف الدكتور ليونهارت راوولف هذا المشـــهد بقوله « حين يأزف وقت إعداد الطعام في المساء والصباح تشاهد في أروقة المكان عدة نيران تم ايقادها فيه [٢٦] .

المبحث الثاني

أولا: خانات بغداد

أول خان ذكر في مدينة السلام ـ أشار إليه ياقوت الحموي هو (خان وردان) الذي يقع في الجانب الشرقي من بغداد ونسب إلى (وردان بن ســـنان) أحد قادة المنصور[٢٧]، هذا فضلاً عن العديد من الخانات التي وصلتنا أخبارها في بغداد وعدد من المدن العراقية.

•خان مرجان

ومن ابـــرز خانات بغداد التي شـــيدت بعد ســـقوط بغداد في عـــام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) بأمر أمين الدين مرجان الذي كان حاكماً على بغداد في عهد الســـلطان (أويس بن السلطان الشيخ حســـن الجلائري)، وكان هذا الخان معروفاً بين الناس بأســـم خان الأروتمة) أي الخان المسقوف، وقد أسس أمين الدين مرجان مدرسة ومستشفى وأوقف الخان المذكور إلى مدرسة[٢٨].

يتألف الخان مـــن طابقين الأول ويحتوي على (٢٢) حجرة والثانـــي على (٢٣) غرفة وتنفتح جميع أبواب الطابق الأرضي على بهو

كبير طوله (٣٠ متراً) وعرضه (١٠ متر)، أما غرف الطابـــق العلوي فتفتح على طنف يطل على البهو المذكور ويحيط به من جهاته الأربعة وعلى علو ســـتة أمتار، وعقادة ســـقف البهو الكبير ترتفع عن أرضيته نحو (١٤ متراً)، كما يزيد عرضها عـــلى المترين وهذه العقود مبينة بصورة متوازية مع فواصل متوازية باستثناء الفاصلة الوســـطى التي هي أكثر عرضاً من غيرها[٢٩].

●خان جغان

يقع هـــذا الخـــان في الرصافة بين ســـوق الجوخجية وســـوق الخفافين. وهو من أقدم وأشهر الخانات المشـــيدة في بغداد في الفترة العثمانية، شـــيده والي بغـــداد (جغالة زادة ســـنان باشـــا) أيام ولايته الثانية على بغداد ســـنة (٩٩٩هـ/ ١٥٩٠ م). وأن الـــذي يؤكد تاريخ بناء الخان، الشريط الكتابي الذي كان يعلو مدخله الشـــمالي وقد استنسخه الرحالة الدنماركي (كارستن نيبور) عندما زار بغداد عام (١١٨٠هـ/١٧٦٦م)، ونص الكتابة: عمر هذا الخان وما فيه مـــن البنيان في أيام دولة السلطان ابن الســـلطان مراد خان خلد الله ملكه وســـلطانه، وأفاض علـــة كافة العالمين عدله وإحسانه سنة (١٩٩٩). وأضاف نيبور بأن هذا الخان كان يحمل كتابة تركية مطولة ولكنه اغفل نقلها [٣٠].

يعدّ خـــان جغان من أكبر خانـــات بغداد مســـاحة وأكثرها أهمية وأجلها موضعاً وقد هدم بعد أن آلت ملكيته إلى أحد التجار اليهود المدعو (مناحيم دانيال) الذي بنى في موضعه سوقاً عصرية لبيع الأقمشـــة ومازال يعرف حتى اليوم (بسوق دانيال)[٣١].

●خان الزرور (الدكمة)

يمثل هذا الخان أهم خانات بغداد الشاخصة، يقع في الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) في محلة باب الأغا، وســـط منطقة اشـــتهرت بنشاطها التجاري منذ العصر العباسي، ويعدّ من أقدم الخانـــات القائمة في بغداد بعد خان مرجان[٣٢].

شـــيد هذا الخان السلطان ســـليم الثاني (٩٧٤هـ / ١٥٦٦ م) استناداً إلى الكتابة المثبتة فوق المدخل الشرقي.

الخان مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه (٤٠ متراً) تقريباً يتوسطه باب كبير يؤدي كل باب إلى سوق، ويتوسط المبنى صحن مكشوف مربع الشكل أيضاً تكتفه أربعة أجنحة بنائية بطابقين، يتقدم حجر الطابق الأرضي أواوين صغيرة تنفتح على الصحن بعقود مدببة زين باطنها بالمقرنصـــات، وتفضي غرف الطابق العلوي إلى رواق تتوزع فيه بين أبواب الغرف مجموعة من المواقد التي كانت تستخدم لعمل وطهو الطعام وذلك لعـــدم وجود مطبخ في الخان[٣٣].

يمتاز هذا الخان بشكله النموذجي للخانات التقليدية في المراكز التجارية داخل المدن، من حيث تخطيطه وعمارتـــه والطرز الزخرفية التي تمتـــد في أصولها إلى العـــصر العباسي والعمارة البغدادية ماهي إلا الوريث الشرعي لها[٣٤].

ويقال لخان الزرور، خان المرادية أيضاً كانت تباع فيه الخيوط والازرار (الدكم) والقياطين الحريرية [٣٥].

•خان الكتان

يقع في محلة باب الأغا وسط منطقة تجارية مهمة يحده من الجنوب سوق البزازين ومن الغرب سوق الخياطين القديم ومن الشرق خان كبة ومن الشمال مبان حديثة[٣٦].

واسمه يدل على أنه خاص ببيع خيوط وأقمشة الكتان وربما للخان اسم اخر قديم لا نعلمه على وجه الدقة لأن الوثيقة التاريخية الوحيدة التي تعتمد عليها في تحديد تاريخ الخان لم تذكر اسماً له واكتفت بتحديد موقعه، وأقدم إشارة لاسمه وقفنا عليها وردت عرضاً في وقفية مؤرخة عام (١٢٣٣هـ / ١٨١٧ م)[٣٧].

كما أن اسم الخان لم يرد في المسح الذي قام به المهندس الانكليزي فيلكس جونز لمدينة بغداد في منتصف القرن الماضي[٣٨]، والذي ثبت فيه أهم مشاءات المدينة ومحلاتها عصرئذ. ولعل جونز فاته أن يذكر الخان، أو لعله ذكره تحت اسم أخر علماً أنه ثبت أسماء أثنين وثلاثين خاناً أكثرها أقل منه أهمية. أغلب هذه الخانات التي أشار إليها جونز في تقريره كانت قائمة في محلتيّ باب الأغا والشورجة [٣٩].

ويحتل الخان رقعة من الأرض مساحتها (١١٨٧,٧٩ م٢)، شغل البناء القسم الأكبر منها، حيث تركت خلفه من الناحية الشمالية فسحة، يؤدي إليها ممر مفتوح في الجناح الشمالي معقود حديثاً بالشيلمان [٤٠].

والخان مربع الشكل تقريباً، قوامه صحن تحيط به أربعة أجنحة بنائية بطابقين. يتكون الطابق الأرضي من حجرات تتقدمها أواوين صغيرة، في حين يتقدم الطابق العلوي رواق يطل على الصحن بعقود محمولة على اكتاف ضخمة وجدرانه مشيدة بالأجر ومكيسة بطبقة ثخينة من الجص [٤١].

للخان مدخل يقع في ضلعه الجنوبي باتجاه سوق البزازين الذي يعرف المنطقة بسوق العريض، وقد أغلقت فتحته من الخارج بباب حديد حديث الصنع ولا أثر اليوم لموضع بابه القديم [٤٢].

•خان الخافقين (خان الباججي)

يقع خان الخفاقين في الجانب الشرقي من نهر دجلة غير بعيد من شاطئ النهر باتصال جامع الخفاقين من الجهة الجنوبية، وهو مقترن بجامع الخفاقين، مسجد (زمردة خاتون) والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله المتوفاة سنة (٥٥٩هـ / ١٢٠٢ م) ولم يبق منه إلا المنارة وهي أقدم المنائر البغدادية [٤٣].

وتذكر المصادر التاريخية بأن مكان الخان كان رباطاً مشهوراً يعرف ب (رباط شيخ الشيوخ بهروز النيسابوري) الذي يرتقي في الزمن إلى أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، قبالة المدرسة النظامية[٤٤].

إن تاريخ الخان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ جامع الخفاقين الذي جدد عمارته الحاج (بكرر الموصلي) سنة (١٢٠٥هـ / ١٧٩٠ م) وأوقف على مصالحه أملاكاً كثيرة ثبتت في وقفيته المؤرخة في ٢١ رمضان عام (١٢٢٣هـ/١٨١٣ م) والمسجلة في دائرة المحاكم الشرعية المحفوظة اليوم في وزارة الأوقاف [٤٥].

•خان كبة

يقع الخان في مدخل سوق البزازين من جهة

شـــارع الرشـــيد، ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ بنائه، لســـكوت جميع المصادر المهتمة بآثار بغداد في هذه الحقبة عنه، كما لا يوجد في ملفات دائرة الآثار والتراث ولا وزارة الأوقاف ما يهدينا إلى تاريخه، وعند اللجوء إلى استخدام المعايير العمارية التـــي تعتمد في العادة على المقارنة، يواجه الباحث صعوبات جمة بسبب التهديم الـــذي تعرض له الخان في أول القرن الحالي، ومـــع ذلك فأننا نرجح أن تاريخ بنائه يعود إلى أوائل القرن الماضي، معتمدين في ذلك على بعض العناصر العماريـــة التي ما تزال شـــاخصة في أصل البناء خصوصاً زخارف الأواوين التـــي تتقدم زوايا البنـــاء الداخلية الأربع في الطابق العلوي، حيث تشبه تلك التي خلصت إلينا من خان الخافقين[٤٦].

الخان في الأصل يشغل فضاءً مستطيلاً، يتألف من صحن مكشـــوف تحيط به أربعة اجنحة بنائية بطابقين، قوام الطابق الأرضي حجرات تنفتح على الصحن مباشرة. أما الطابق العلوي فيضم مجموعة من الغرف يدور أمامها رواق تهدم سقفه مؤخراً [٤٧].

وقد تخرب معظـــم الخان عام ١٩١٦، عند توسيع شارع الرشيد، هذا التوسيع في سقوط جناحيه الشرقي والجنوبي وجزء من جناحه الشمالي، ولم يبق اليوم مائلاً من أصل الخان إلا مدخله وجانبه الغربي بطابقيه وقسم من جناحه الشمالي[٤٨].

• خان الباشا الكبير

يقع في الرصافة على شارع السموأل بين سوق الصرايف وسوق الطمغة، وكان لال كبة، وقد أهدى الحاج مصطفـــى كبة نصف الخان إلى والي بغداد داود باشا وقد سمي بخان النبكة لأنه كانت تتوسطه نبكة ما زالت قائمة، وعند شق السموأل في عام (١٩١٦ م) أزيل نصفه، والنصف الباقي أزيل في عام (٢٠٠٩ م) [٤٩].

ثانياً: دور خانات بغداد في تأصيل المبادئ الاجتماعية

يرتبـــط ظهـــور الخان بتنامـــي الحركة التجارية التي تتطلب قيام منشـــآت تجارية على طـــرق المواصلات الخارجيـــة وفي داخل المدن، مهمتها تقديم الخدمات إلى المســـافرين والتجـــار وتأمين راحتهم والمكان المناســـب لبضائعهم وحيواناتهم، وهو يمثل أحدى أهم المراكز التجارية في العـــراق والعالم العربي والإســـلامي، وأكبر مستودعاتها، فقد وصفها بعض المؤرخين وقالوا فيها أنها السوق الكبيرة لمنتجات الهند وإيران والقسطنطينية ودمشق وحلب والقاهرة[٥٠].

لذلك فمن الطبيعي أن تحظى بغداد بمخازن كبيرة لحفظ البضائع التي تنقل إليها بواسطة السفن عبر نهر دجلة أو براً عبر القوافل لتودع في الخانات إلى حين تصريفها وهذا فضلاً عن كونها محطات اســـتراحة لقوافل المسافرين واتجـــار، ولهذا كان للخان الأثـــر الفعال في اجتذاب عدداً كبيراً من الناس ومن جنســـيات مختلفة، ويزداد هذا الأثر عندما تدوم الإقامة في الخـــان، كمـــا أنها كانـــت ملجأ في بعض الأحيان لإقامة المشردين والهاربين والمطلوبين للحكومة، واتخاذها منفى لبعض الأشخاص الذين يخشى وجودهم في المدينة التي يعيشون فيها، كما أن البعض منهـــا كان مكاناً لبيع العبيد[٥١].

ومن الطبيعي أن يكون للخانات في المدن دور واضح في مجمل النشـــاطات التجارية وربما العامة أيضاً ؛ لكونها من المؤسسات الخدمية التي لها علاقة مباشرة بحياة الفرد والمجتمع. لذا شهدت الخانات على مر الحقب التاريخية حوادث أتى على ذكر بعضها عدد من المؤرخين والرحالة لتعرفنـــا على طبيعتهـــا ودورها الحضاري في بناء المدينة العربية الإسلامية[٥٢]، ومن المعروف أن معظم الخانات كانت تبنى لغـــرض الربح والتجـــارة، إذ تفضل الطبقة الغنية مـــن الناس اســـتثمار أموالها بشراء العقـــارات[٥٣]، خاصة المؤسســـات التجارية التي تدر على الـــدوام دخلاً كبيراً، ومن أهمها الخانات التي غالباً ما تحتـــل موقعاً متميزاً في المدن، وهي المناطـــق التجارية اي منطقة الأســـواق الكبرى ومع ذلك فليس الغرض من تشييد الخانات الربح الشخصي للإفراد فقط، حيث أن عدداً كبيراً منها كان يشـــيد من أجل البر والتقـــوى أي وقفاً عـــلى المباني العامة الدينية والخدمية، المساجد والمدارس والمشاهد ودور الشـــفاء وغيرها فتحبس غلتها لتصرف على الترميم وتوفير المســـتلزمات الضرورية لها والـــصرف على القائمين عـــلى أمرها كما يحبس بعضها على العلماء أو الفقراء والأيتام والمســـاكين والعاجزين عن الحـــج وتجهيز البنات إلى أزواجهن، أو فكاك الأسرى أو تعديل الطرق ورصفهـــا[٥٤]، وأقدم خان وقفنا عليه بالعراق، حبس من أجل البر هو(خان القطن) المشيد سنة (١٠٣ هـ / ٧٢١ م) في مدينة بلط السالف ذكره[٥٥]، ومن خانات بغداد الموقوفة على أصحاب الإمام الشافعي (خان دعلج)[٥٦]، الذي أقام صرحه الوزير نظام الملك[٥٧].

لذا كانـــت خانات بغداد مركـــز جذب لعدد كبير من الناس من ســـكان المناطق المحيطة والقريبة منه للاســـتيطان في الأراضي الخالية القريبة من الخان وبيـــع منتجاتهم الزراعية على المسافرين، كما أن البعض منهم كان يتخذ له (دكان) قرب الخان ويبيع فيه ما يحتاجه المســـافرون وشراء ما يبغيه المســـافرون من بضائع كانوا يحملونها معهم، وبمرور الزمن زاد عدد هذه الدكاكين وكثـــر عدد العاملين فيها فنشأت مستوطنات صغيرة حول الخان تحولت فيما بعد إلى مدن وأسواق منها: ناحية المحمودية، وقضاء الاسكندرية الذي نشأ حول خان الاسكندرية... وغيرها من الخانات[٥٨].

ومن البديهي أن تشهد مباني بغداد الموقوفة بعد سقوطها بيد المغول (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) تدهوراً ملموساً، شـــأنها في هذا شأن غيرها من المؤسســـات العامة ومع هـــذا فقد بنيت في بغداد بعد هذه الفـــترة عدة خانات اهمها (خان مرجـــان) الذي أقام صرحه أمين الدين مرجـــان عـــام (٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م) ليكون وقفاً على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة، وتدل الكتابة التي تعلو واجهة مدخله أنه أوقف على تلك المؤسســـتين عدداً آخر من الخانات التي كانت قائمة في الجانبين الشرقي والغربي من بغداد[٥٩].

ويمكننا أن نقســـم الخانات إلى عدة أقسام حســـب تخطيطها وعمارتهـــا ووظيفتهالا، فلرئيســـة والكبيرة والمهمة وهي التي يعول عليها شيدت أصلاً لتكون خاناً تباع فيه سلعة معينة أو عدة ســـلع منها، خان الكتان، خان

الحريـــر، خان الزرور... وهـــي من الخانات المتخصصة وخانات أخرى تباع فيها ســـلع مختلفة، منها خان الباشا، خان البرزلي، خان الخفاقين وأخرى كثيرة[٦٠].

وهناك قسم آخر كانت بيوتاً سكنية ونتيجة لزحف الأســـواق وتوســـعها تحول بعضها إلى خانـــات، بعد إجراء بعـــض التحويرات التي تتناســـب والوظيفة الجديدة منها، خان الخضيري في شارع المستنصر وخان الشابندر في شارع المســـتنصر، أيضاً وخان شماش في باب الأغـــا وخانات أخرى كثـــيرة موزعة في المحلات التجارية[٦١].

والقســـم الأخر من الخانات كان مخصصاً لبيع الجلود والمنتجـــات الحيوانية، والحبوب والتمور، وغيرها تتركز في منطقة الشـــواكة وباب السيف وعلاوي الحلة والشيخ بشار في جانب الكرخ[٦٢].

وفي منطقة الشـــورجة عند نهاية الشورجة في المنطقة الممتدة من شـــارع غازي إلى شارع الشيخ عمر، هذا فضلاً عن الخانات التي كانت تسمى (علوة) بعضها مخصص لبيع الفواكه والخضر والبعـــض الأخر كان مخصصاً لبيع المواد الانشائية، وهي موزعة في معظم محلات بغداد لتلبية حاجات سكان المحلات من المواد المختلفة والخانات في مدينتي الكاظمية لا تقل أهمية عن الخانات الاخرى في مدينة بغداد[٦٣].

وهناك خانات أخـــرى تختلف وظيفتها عن الخانات الســـابقة الذكر، وهب الخانات التي كانت مخصصة لسكن الأسر الفقيرة، منتشرة في محلات بغداد القديمة، وهي ذات مواصفات خاصة تتناسب ووظيفتها، وقد أدركنا البعض منها في جانب الكرخ منهـــا (خان عودة) في محلة المشـــاهدة (خان حنون) المجاور لخان عودة، (وخان بنات الحســـن) في محلة الشيخ علي وأخرى كثيرة موزعة في المحلات التراثية، ولم يبق لها ذكر بعد أن هدمت وبني في أرضها عمارات تجارية أو ابتلعت الشـــوارع قسماً منها[٦٤].

وعـــلى الرغم من كثـــرة الخانـــات وتعدد اختصاصاتهـــا، إلا أنها تفتقر إلى أمور كثيرة وبخاصة التي كانت تقع في منطقة الأســـواق التجارية فغرفهـــا تفتقر إلى الأثاث، كالفرش والأسرة والمواقـــد والكراسي؛ إذ غالباً ما كانت تفرش بحصر من القصب (البواري) لتعوض عن تلك المســـتلزمات، وبذلك يضطر من يريد المبيت فيها إلى جلب فراشـــه معه وما يحتاج إليه من لوازم تساعده على الإقامة في الخان[٦٥].

وهناك ظاهرة في بعـــض الخانات كان يقيم فيها أحد الملالي الذي يقوم بتعليم أبناء التجار القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم، حتى أن بعض الباحثين المحدثين اعتبر أن في منطقة الأسواق التجارية مدارس[٦٦].

أذن كان لخانـــات بغداد دور مهم وبارز في تأصيل المبادئ الاجتماعية ؛ باعتبارها مراكز تجارية إلا انها دورها يتعدى البيع والتجارة لتكون مراكزاً للتجـــاذب والتقارب بين كافة فئات المجتمع وحتى الاجانب.

●الخاتمة:

ولما كانت خانات من المؤسسات الخدمية التي لها علاقـــة مباشرة بحياة الفـــرد والمجتمع، فمن البديهي أن يكون لها دورها الحضاري

الواضح في مجمل النشـــاطات العامة، والذي تتضح أهميته من خـــلال الوقفيات التي على ذكرهـــا العديد من المؤرخـــين، أو من خلال اهتمام أصحاب السلطة بها، فضلاً عن عددها الكبير الذي نتلمســـه في مدونات الأســـلاف خاصة عند ذكر الكوارث الطبيعية كالحرائق والفيضانات أو من خـــلال الإحصاءات التي قدمها لنـــا الرحالة الأجانب فضلاً عن ما ورد عنها في أدب العصر العباسي.

●الهوامش

(١)العسكري، أبو هلال. التلخيص في معرفة اسماء الاشياء، دمشق (١٣٨٩- ١٩٦٩)، ج١، ص ٢٦٩.

(٢)صروف، يعقوب، واخرون. باب المســـائلة، مجلة المقتطف، ٢٦، ١٩٠١، ج١٠، ص ٩٤٧.

(٣) صروف، المصدر نفسه، ص ٩٤٧.

(٤)أدي شـــير. الألفاظ الفارســـية المعربة، بيروت، ١٩٠٨، ص ٥٨.

(٥)الفيروز أبـــادي، القاموس المحيط، مصر ١٩١٣، ج٤، ص ٢٩٨.

(٦)الشافعي، فريد محمود. العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومســـتقبلها، جامعة الملك سعود الرياض، ١٩٨٢، ص ١٢٤.

(٧)زكي، عبد الرحمن، القاهرة تاريخها واثارها، دار الطباعة الحديثة، ١٩٦٦، ص ٢٤٠.

(٨)محمد، غازي رجب، العمارة العربية الإسلامية في العراق، بغداد، ١٩٨٩، ص٢١.

(٩)البستاني، بطرس، محيط المحيط، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٣٧.

(١٠)ابن بطوطـــة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٧هـ- ١٣٧٥م). رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظـــار في غرائب الأمصار وعجائب الأســـفار»، دار صادر ودار بيروت، لبنان، ١٩٦٤، ص٥٤.

(١١)المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطـــط والآثار، دار صادر للطباعة، بيروت،(د.ت) ج٢، ص٩٢.

(١٢)المحي، محمد امين. خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، مصر ١٨٦٧، ج٤، ص ٣٥٧.

(١٣)ســـليمان، عامر. الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية « المدينـــة والحياة المدنية «، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص ٢١٦.

(١٤)رأووف، ليونهـــارت. رحلة المـــشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين سنة ١٥٧٣، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨،ص ٧٢.

(15)Ives,E,A journey from Persian to England by an unusual route ,London(1773) ,p.151.

(١٦)نورس، علاء. أحوال بغـــداد في القرنيين الثامن عشر، بغداد، ١٩٩٠، ص ٢٩.

(١٧)راوولف، المصدر السابق، ص ٤٨.

(18)Goknil,living architecture ottoman London (1966),p.179.

(١٩)ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ – ١٢٠٠ م. مناقب بغداد، تحقيق: محمـــد بهجة الأثـــري، مطبعة دار الســـلام، بغداد (١٣٤٢هـ- ١٩٢٣، ج١٠، ص٣٥.

(٢٠)المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٩٢.

(21)Serjeant, R and Lewcok, R., Sanaa an-Arabian Islamic city. England,1983,p.278.

(22)Parsons,A.,Travels Asia and Africa, London.1808,p.127.

(٢٣) الف ليلة وليلة. مطبعة محمد علي،مصر، (د. ت)، ج١، ص١٨٨.

(٢٤)السبكي، عبد الوهاب، معيد النعيم ومبيد النقم، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٣٥.

(٢٥)السبكي، المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٢٦)راوولف، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٢٧) الحموي، شـــهاب الدين ياقوت. معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧، ص ٣٣.

(٢٨)الدراجي، حميد محمد. مظاهر العمارة التراثية في مدينة بغداد، ط١، دار الشـــؤون الثقافية العامة،

٢٠١٣، ص ١٠٢.
(٢٩)الدراجـــي، حميد، المصدر نفســـه، ص ١٠٢-١٠٣.
(٣٠)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٣- ١٠٤
(٣١)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٣٢)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٣٣)الدراجي، حميد،المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٣٤)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٣٥)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٣٦)الدراجي، سعدي ابراهيم. خانات بغداد في العهد العثماني، ط١، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣، ص ٨٩.
(٣٧) الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٣٨)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٣٩)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٨٩.
(٤٠)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٩١.
(٤١) الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٩١.
(٤٢)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ٩١.
(٤٣)الدراجي، حميد، المصدر السابق، ص ١٠٧.
(٤٤)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٧.
(٤٥)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠٧.
(٤٦)الدراجي، سعدي، المصدر السابق، ص ١٠٩.
(٤٧)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص١١٠.
(٤٨)الدراجي، سعدي، المصدر نفسه، ص ١١٠.
(٤٩)الدراجي، حميد، المصدر السابق، ص ١١٨.
(٥٠)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٥١)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٥٢)الدراجي، سعدي، المصدر السابق، ص ٤٢.
(٥٣)الدمشـــقي، أبو الفضل. الإشـــارة إلى محاسن التجارة القاهرة، ١٣١٨ ه، ص ٣٣.
(٥٤) ابن بطوطة، الرحلة، المصدر السابق، ص ١٠٤.
(٥٥)الهروي، علي بن أبي بكر (ت ٦١١ه). الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين ســـور طومين، دمشق، ١٩٥٣، ص ٦٨.
(٥٦)نسبة لدعلج ابن احمد المحدث (ت ٣٥١ ه).
(٥٧)الهمداني، محمد بن عبدالله (ت ٥٤١ ه). تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: البرت يوسف كنعان، بيروت، ١٩٥٩، ج١، ص٢٢١.
(٥٨)الدراجي، حميد المصدر السابق، ص ١٠٢.
(٥٩)جواد، دليل خارطة بغداد، ص ٢٢١.
(٦٠)الدراجي، حميد، المصدر السابق، ص ١١٠.
(٦١)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١١٠.
(٦٢)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١١٠.
(٦٣)الدراجي، حميد المصدر نفسه، ص ١١٠.
(٦٤)الدراجي حميد، المصدر نفسه، ص ١١٠.
(٦٥)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١.
(٦٦)الدراجي، حميد، المصدر نفسه، ص ١١١.

●المصادر

١-ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ – ١٢٠٠ م. مناقب بغداد، تحقيق: محمد بهجة الأثري، مطبعة دار السلام، ج١٠،بغداد (١٣٤٢هـ- ١٩٢٣.
٢-ابـــن بطوطة، أبو عبدالله محمـــد بن عبدالله (ت ٧٧٧هـ- ١٣٧٥م). رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظـــار في غرائب الأمصار وعجائب الأســـفار»، دار صادر ودار بيروت، لبنان، ١٩٦٤.
٣-أدي شير. الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٠٨.
٤-البستاني، بطرس، محيط المحيط، بيروت، ١٩٨٣.
٥-جواد، دليل خارطة بغداد.
٦- الحموي، شهاب الدين ياقوت. معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧.
٧-الدراجي، حميد محمد. مظاهـــر العمارة التراثية في مدينة بغداد، ط١، دار الشـــؤون الثقافية العامة، ٢٠١٣.
٨-الدراجي، ســـعدي ابراهيم. خانات بغداد في العهد العثماني، ط١، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣.
٩-الدمشقي، أبو الفضل. الإشارة إلى محاسن التجارة القاهرة، ١٣١٨ ه.
١٠-رأووف، ليونهـــارت. رحلة المـــشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين سنة ١٥٧٣، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨.
١١- زكي، عبد الرحمـــن، القاهرة تاريخها واثارها، دار الطباعة الحديثة، ١٩٦٦.

١٢- السبكي، عبد الوهاب، معيد النعيم ومبيد النقم، القاهرة، ١٩٤٨.
١٣-سليمان، عامر. الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية « المدينة والحياة المدنية «، ج٤، بغداد، ١٩٨٨.
١٤-الشـــافعي، فريد محمـــود. العمـــارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جامعة الملك سعود الرياض، ١٩٨٢.
١٥-صروف، يعقوب، واخرون. باب المســـائلة، مجلة المقتطف ج١٠، ٢٦، ١٩٠١.
١٧- العسكري، أبو هلال. التلخيص في معرفة اسماء الاشياء، ج١، دمشق (١٣٨٩- ١٩٦٩).
١٨- الف ليلـــة وليلة. مطبعة محمد علي، ج١، مصر، (د. ت).
١٩- الفيروز أبادي، القامـــوس المحيط، ج٤،مصر، ١٩١٣.
٢٠- محمد، غازي رجب، العمارة العربية الإسلامية في العراق، بغداد، ١٩٨٩.
٢١- المحي، محمد امين. خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، ج٤، مصر، ١٨٦٧..
٢٢- المقريزي، تقي الدين اخمد بن علي (ت٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطـــط والآثار، دار صادر للطباعة، ج٢، بيروت،(د.ت).
٢٣- نورس، علاء. أحوال بغـــداد في القرنيين الثامن عشر، بغداد، ١٩٩٠.
٢٤- الهروي، علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ). الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين ســـور طومين، دمشق، ١٩٥٣.
٢٥- الهمداني، محمد بن عبدالله (ت ٥٤١ هـ). تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: البرت يوســـف كنعان، ج١، بيروت، ١٩٥٩.

Khanate Al-Baghdadiya and its role in rooting Social principles

By:Assist. Dr.. Mazen Qasem Muhalhal
Center of revival of Arabic science Heritage/ University of Baghdad

Abstract

The khans in Persia and Turkey were also known as the "Al-Masafir khana", i.e. the house of travelers, as this word was known in the Arab countries. Especially in the Ottoman era, where it was called guesthouses.

Whereas in the country of Yemen it was known (Al-Samasir) relative to the man, the real estate broker who mediates between the seller and buyer to promote the goods. It is necessary to stand on the markets as the Khan part or complement to them and the fact that we do not know where the descent of the convoys and their stability in the old Iraqi city.

Key words: boxes, rooting, principles, social